الفصل الخامس

حالبُ الشّاة .. يا أمّاه !!

كانت بساطتُه ، أهم عناصر عظمته . .

وكان قبل أن يصير خليفة يُقدَّم لأهل الحىّ الذى يسكنه خدمة تناهَت فى الطرافة والروعة .

فقد كان فى جيرته بعض الأرامل العجائز اللائى مات أزواجهن أو استشهدوا فى سبيل الله .

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءهم . .

وكان رضى الله عنه يَؤُم بيوت الأولَيات فيحلُب لهن الشِّياه .

ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام .

ولما صار خليفة ، تناهى إلى سمعه حَسْرة العجائز لأنهن سَيُحرَمْنَ منذ اليوم من الخدمة الجليلة التى يؤديها لهن الرجل الصالح . .

– لكنه أخلف ظنونهن . . ! !

* * *

وذات يوم ، يقرع باب إحدى تلك الدُّور ، وتسارع إلى الباب فتاة

صغيرة لاتكاد تفتحه حتى تصيح .

– « إنه حالِبُ الشاة يا أمّاه » . .

وتُقبل الأم فإذا بها وجهاً لوجه أمام الخليفة العظيم ، فتقول لابنتها فى حياء .

– « وَيحك ! ألا تقولين خليفة رسول الله » . . ! ؟

ويُطرِق أبوبكر ويُهمْهِمُ مع نفسه بكلمات خافتة . .

لعلَّه كان يقول : دعيها ، فقد وصَفَتْنى بأحب أعمالى إلى الله . . ! !

وتقدم حَالِبُ الشاة ليؤدى الواجب الذى فرضَه على نفسه .

أجَل . .

حالِب الشياه للعجائز . . ! !

والعاجِن بيديه خبز الأيتام . . ! !

بَساطة ، ورحمة ، تفانياً فى أداء حق الحياة . . ! ! !

تُرى لو قُدِّر لأبى بكر بشمائله هذه أن يكون رئيس دولة فى عصرنا الحديث ، أكان منهجه هذا يتغيَّر . . ؟ ؟

كلا . .

صحيح أنه لم يكن سيحلب الشياه ، ولايطهو بيده الطعام . .

بيْد أنَّ شمائله تلك ، كانت ستُعبِّر عن نفسها فى مشاهِدَ كهذه تُناسِبُ رُوح العصر دُون أن تَبْخَس نفسها فى شىء . .

إن بساطة هذا الإنسان البارّ ، وإن رَحْمته لَمن الأمور المُعجزة . .

ولقد أعطاه الرسول حقه حين قال عنه : « أَرْحَمُ أمَّتى بأمتى أبوبكر »

لقد كان يحمل قلباً مشحوذ الإحساس بكل ألم إنسانى .

وكان يملك إرادة مباركة تسارع إلى إنجاز تَوْصِيات قلبه الرشيد الودود . .

* * *

كان فى بَدء إسلامه لا يطيق أن يرى مُؤمناً يتعذب ، وكانت نفسه تَنُوء بالألم حين يكون أولئك المعذَّبون رقيقاً ، ومن ثَمَّ وضع ثروته فى سبيل تحريرهم وحرَّرَهم جميعاً بماله .

بلال . . عامر بن فهيرة . . زُنَيْرة . . أم عبس . . النَّهدية ، وابنتها . . جارية بن عمرو بن مؤمِّل . . وغير هؤلاء . .

وكان عظيماً ، وهو يُشعر هؤلاء الأرقّاء أنه لا يحررهم ، بل يُحرِّرُ نفسه قبلهم . . لأنه وقد آتاه الله المال ونعمة الإسلام بات واجباً عليه أن يُحطِّم من الأغلال الظالمة كل مايستطيع تحطيمه . . ؟ ؟

حين افْتدى بلالا ، قال له سيده – تحقيراً منه لشأن بلال – :

« خذه فلو أبيتَ إلا أوقية واحدة لبِعتُكَهُ بها » . . .

فأجابه أبوبكر قائلاً : « والله لو أبيتم إلا مائة لدفعتها » . . ! !

ومن الطريف أن يتناقل الناس فى مكة أن أبا بكر يبذل فى سبيل تحرير العبيد من ماله بَذْلَ السَّماح ، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى إنزال العذاب بعبده كى يُسارع أبو بكر لنجدته ويتقاضاه السيد ثمناً يدفع به ضائقته وأزْمتَه . . ! !

إنه رحيم أوّاب . . .

إنه إنسان انتهى إليه كل ما فى الإنسانية من حنان ونَجدة ! !

ولقد خُلِق هكذا . . وخُلِق لهذا . .

فى أيام الجاهلية كان ذلك خلقه . .

لم يُعرف عنه مرة واحدة أنه قاتَل ، أو شاتَم ، أو أساء ، أو تخلَّى عن مُروءة ، أو بَخِل بماله أو جاهه .

فلمّا أسلم أُضيف إلى صِدق فِطرته ، صدقُ دينه . .

* * *

وكان « رَبَّانِيًّا » فى كل مشاعره وسُلُوكه .

يعبد الله كأنّه يراه . . ويُعامل الناس جميعاً كأنهم أبناء الله .

ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته « أسماء بنت عُمَيْس » .كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه ، فأجابته قائلة :

– « كان إذا جاء وقتُ السَّحَر قام فتوضأ وصلى . . ثم يظلُّ يُصلِّى . . يتلو القرآن ويبكى . ويسجد ويبكى . . ويدعو ويبكى . . وكنتُ آنئذ أَشَمُّ فى البيت رائحة كبد تُشْوَى » . . . ! !

فبكى عمر رضى الله عنه قال :

– « أنَّى لابن الخطاب مثل هذا » . . ؟ ؟

رائحة كبد تشوى من أبى بكر . .؟ ؟

الرجل الطهُور الذى لايكاد يُعرف له خطأ ، يحمل كل هذه النفس المُوْلِوَلَة من خشية الله ، وكل هذه الجوائح المُتلَظِيَة من رَهبته . . ! !

أجَل . . إن إجلالَه ربَّه وتوقيره كان يملأن نفسه روعة ، يملأنها حياء ، وإخباتاً . .

ولقد كان يعلم علم اليقين أن من تمام توقيره ربه ، توقيرَ عِباد هذا الرب العظيم . .

وهكذا ، لم يكُن فى علاقاته بالناس يسير وَفْق ما ينبغى وحَسْب . . . بل وَفْقَ « الرَّبَّانِيَّة » التى أسْكنها الله فى قلبه وضميره . . .

فهذا الرجل« الإلهى » لايُعطى الناس من ذات نفسه ماينتظرون . . . بل يُعطى مايقدِر هو على إعطائه ، وإنه ليقدر على كثير وكثير .

ومن ثمَّ رأيناه دَوماً المُبادِرَ المقدام نحو كل واجب . نحو كل أزمة . . ونحو كل تضحية . .

والمستَوَى الذى تعمل عنده فضائله المتفوّقة مُستَوى واحد ومتكافئ . .

فالروح المستبسلة التى واجَهتْ أزمات الدعوة فى حياة الرسول وبعد مماته — هى نفس الروح التى دفعت صاحبها إلى أن يحلُب الشياه للأيامى .. ويعجن الدقيق لليتامى . . ! !

* * *

وبَساطةُ خُلُقه تتواءم مع بساطة خَلْقه ، وكما أن بساطة شمائله تتضمَّن عظمة خارقة . فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمَّن شخصية خارقة . . ! !

وإذا أردنا أن نرى صُورَة التكْوين الجَسَدى لهذا السيد الجليل ، فهاهى ذى الصورة كما تُقدمها ابنته السيدة عائشة — فهو :

— « أبيض . . . نحيف . . . خفيف العارِضيْن . . أَحْنَى الظهر . . معروق الوجه . . غائر العينين . . نائئ الجبهة . . عارى الأشاجع . . »

هذا هو الرجل الذى اختارته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جميعاً فى فن الإيمان والعظمة . . ! !

هذا هو الرجل الذى اختير لتكون أيامُه السطورَ الأولى فى نَعْى أعظم امبراطوريات عصره وعالَمه — الروم وفارس . . ! !

وليكون أول خليفة لرسولٍ ، سيسير دينه كالضوء مُشرِّقاً ومُغرِّباً ، صانعاً حضارة تملأ الدنيا ، وتُسعد الناس . . .

أجَل . . وفى هذا الجسَد الناحِل وجَدَتِ العظمة منزلاً لها ومُقاماً . . !

انه لا يملك جِسمًا « مَلَكيًّا » وليس فى تكوينه شىء مِن سِمات الأباطرة . . .

لكأنّ الله علم من عبده الصالح هذا ، أنه لن يضيق فى حياته بشىء مثلَ ضيقهِ بأن يَميزَه عن الناس شىء يجعله مَهْوَى أعينهم المبهورة ، فاختار له هذا المظهر البسيط والتكوين العادى . . ! !

انظروا وصْف ابنته له :

« غائر العينين . . . معروق الوجه . . نَاتِئُ الجبهة » . ! !

أجل . . لاشىء غير عادى فى سيّد قُريش ، وخليفة الرسول ، وقاهر جيوش الردة ، وحالب شياة الأيامى . . ! !

لاشىء غير عادى ، اللهم إلا ذلك اللألاءَ المُشِعَّ من عينيه اللتين تُرسلان سَناً عجيباً ، وألَقاً باهراً ، كأنهما كوكبان دُرِّيّان . . ! ! !

وإنهما لَهَاجِعتَان تحت جبهته العالية ، وجبينه المتَّئِد ، تنعكس عليهما كَل مافى قلبه من ضياء ، وقوة ، وحُب . . .

فإذا وقَعتا على أسىً ، ألْتمعَتا بفيض من الحنان والرحمة والنجدة . .

وإذا وقعتا على ظلم ، توهَّجَتا باللَّهب المقدس . .

وإذا وقَعتا على وجه إنسان ، قرأتاه فى لحظة . . .

وإذا استقبلَتا آية من آيات الله ، فاضَتا بالدمع خشيةً ، وإجلالا . . !

إنهما عينان غائرتان حقًّا ، لكنهما خُلِقَتا لِتَريَا الحق وتهتديا إليه فى غير عَناء . .

وجَسدُه نحيل ضامر ، لكنه يتفجَّر حيوية وطاقة . .

وفى داخل هذا الجسد المتواضع ، تقيم روح من أعظم أرواح بنى الإنسان . . ! ! !

* * *

وبعد . .

فهذا هو الصِّديق . . ! ! لا يرفع الكاتبون مِن قَدره بما يَسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقْدار أنفسهم حين يُؤهِّلونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامِخ العظيم . .

ولقد كان رضى الله عنه أكثرَ الناس حياءً إذا أُلقيتْ عليه كلمة ثناء . . .

حينذاك ، كان الدمع يُبلِّل عينيه ، ويُردِّدُ ابْتهاله المأثور :

— « اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون . .

« واغفر لى مالا يعلمون . .

« ولا تُؤاخذنى بما يقولون . . » ! !

* * *

يرحَمُك الله ، أبا بكر . .

إنك دوْماً ، وأبداً ، لخَيْرٌ مما يظنون . . ! ! وخيرٌ مِمَّا يَسْطُرون . . ! !

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أجزاء
– معاً على الطريق محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً ، يا عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٦٥٧١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5935-7

١/٩٩/٩٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)